الجامعة العثمانية

مجلة سياسية علمية ادبية تهذيبية

الآداب والاخلاق — الوطن والملة

« يكون الرجال كما يريد النساء واذا اردتم ان يكونوا »
« عظماء وفضلاء فعلموا النساء ان هي العظمة والفضيلة »

« ليست وظيفة المدرسة مقصورة على تعليم العلوم فقط »
« فان بث الفضيلة والاقدام من اخص وظائف المدرسة »

الاسكندرية في اول يونيو (حزيران) سنة ١٨٩٩ — الموافق ٢٢ محرم سنة ١٣١٧

باب المقالات

طاعون وطاعون

الاجسام والنفوس

نضرب في هذا الجزء صفحاً عن المقالة السياسية الافتتاحية لنقول كلمة في النبأ العظيم الذي اجفلت له مصر واوربا معاً وهو حدوث اصابتين في الاسكندرية اشتبه انهما بالطاعون. وقد نزل هذا النبأ على النفوس نزول الصاعقة فهلعت القلوب وقلقت الخواطر واضطربت الافكار وبات الناس حيارى من الحرص على البقاء يتساءلون ماذا يصنعون وكيف يتدبرون

ولانحاول النظر في الطاعون لان من الوجه الصحي فقد كفانا مؤونه هذا الامر احد اطبائنا الافاضل الذي يعد الآن للجامعة فصلاً شائقاً في هذا الداء الاسود سننشره في الجزء التالي. اما نحن فننظر الآن في الطاعون نظراً ادبياً

علام خوف الناس من الطاعون كل هذا الخوف الذي يقصم الظهور ويخلع القلوب. اتراهم شديدي البعد عنه لا يحملون كل يوم جراثيمه ويطوفون بها الازقة والشوارع وهم يغذونها من اطيب ما في نفوسهم ؟

نعم ان هذا الطاعون لا اسمى طاعوناً جسدياً ولكن هل ان (الطاعون الادبي) اقل فتكاً في الانسان واخف تأثيراً من (الطاعون المادي) ؟ ام النفوس لديهم رخيصة والاجسام غالية ؟

مرح طرقك ايها الانسان حيث كنت في الغرب او في الشرق وانظر حولك ضروب (الطاعون الادبي) التي تفتك بنفس الانسانية فتكاً ذريعاً. بل مالنا وللغرب وللشرق فلننظر في مصر هذه الارض الطيبة العزيزة. اترى الطاعون اشد فتكاً في الاجسام من خمر الازبكية وخمارها في النفوس؟ لو قام الطاعون في مصر وقعد هل كان يفتح للاجسام هاوية اوسع واعمق من تلك الهاوية الهائلة التي تفتحها الآن للنفوس اماكن الفساد حيث يقتل (في الجنسين) الشرف والعقل والبدن وتدفن كما تدفن الجيف المنتنة ؟ قال اسقف في افريقيا ان المسكرات تقتل ٧٥ في المائة من السكان فقام عليه تجارها وطلبوا محاكمته بتهمة القذف والافتراء فلو فشا الطاعون بينهم اكان اشد فتكاً فيهم من المسكرات ؟ هل يخرب الطاعون من البيوت العامرة ما خربه في مصر داء المقامرة ؟ وتلك المثالب والمطاعن في الجرائد. والغش في المعاملات. ودوس القوي الضعيف. واستبداد الحاكم بأمر المحكوم. والكذب والكبرياء والرياء والتعصب الاعمى والطمع والجهل والفقر والشقاء وكل هذه الرذائل الصغيرة والكبيرة التي تاكل اليوم من احشاء الانسانية وتتغذى من دمها — كل هذه ابلغ الطاعون مبالغها في

العدوان على الانسان وايذائه ؟ فعلام الهلع والجزع امام طاعون الاجسام على حين انكم لا تبالون بطاعون النفوس ؟

لقد عمكم هذا التمدن الفاسد ان لا تبالوا به اذ عوّدكم رؤيته فالفتموه وبقي يخز عودكم كما يخز السوس لب الشجرة وانتم عنه لاهون وبحطام الدنيا وزخارفها مشغولون . كالمي اصابت ذئباً رابضاً يفترس نعجة فاخذت تنهش لحم فريستها وهو مشغول بفريسته . فكما انكم لا تبالون بطاعون النفوس تعلموا ايضاً ان لا تبالوا بطاعون الاجسام . وما هي الحياة حتى تحرصوا عليها كل هذا الحرص الشديد ؟ بخار يرتفع قليلاً ثم يضمحل . وردة تتفتح اكمامها في الصباح لتذبل في المساء . شمعة ايها الاعزاء كالشمعة التي نكتب على نورها الآن تذوب فلا يبقى لها اثر في هذا الوجود

واذا كنتم لا ترون في هذه الاوبئة القتالة الاجانحات للاجسام فكثيرون يرون فيها ما لا ترون و يعتقدون غير ما تعتقدون . انها سياط الله سبحانه يرسلها على الانسانية عقاباً وانذاراً . عقاباً مني خرجت الانسانية عن دائرة الشرائع الازلية الابدية التي وضعها لها . وانذاراً مني اراد ان يرد اليه النفوس الشاردة البعيدة عنه ويجتذب الى (فوق) تلك العيون التي لا تنظر الا الى (تحت) . تاملوا تجدوا هذا الأمر ظاهراً في كل مرة يرسل الله سوط الوباء على بني الانسان . فانهم يحسون في ذلك الوقت يد تربطهم من جديد بالسماء بل تجذب ابصارهم من نفسها الى فوق فتجري السنتهم بقولهم (الله الواقي) (لتكن مشيئة الله) مع انهم مضت عليهم الايام والشهور والاعوام وهم لم ينظروا الى السماء ولم يذكروا اسم الله

فلا بعداً لك ايتها الاوبئة السوداء الهائلة اذا كنت تردين المخلوق الى الخالق وتقطعين بيدك المخيفة تلك القيود الارضية القبيحة التي تقيد رؤوسنا بالنظر دائما الى الارض فتشغلنا الدنيا وزخارفها والحياة واطماعها عن النظر الى السماء

نوجه انظار القراء الكرام الى المقالة التالية في « التوازن الدولي » فانهم قلما يجدون دائماً موضحاً فاصلاً بحث لهم في الشرق هذا البحث المبتكر في السياسة والتاريخ فنتصفح لهم ان يطالعوها بما تستحقه من الامعان الشديد ونشكر لحضرة ناشر بردها شكراً جزيلاً

التوازن الدولي

لحضرة العالم الفاضل والمؤرخ المحقق جرجي افندي بني

لا خفاء ان كيان الدول يختلف باختلاف اقدارها بين قوي عظيم وضعيف خامل وما بينهما . وان تماسك الامة الواحدة ذائد عنها جائحة العدوان وكل دولة تطمح بانظارها الى الاخرى فتقف لها بالمرصاد لترى من منعتها ثغرة فتنقض عليها فتبتلعها لان التسود من طبيعة الانسان النشيط ولا تجدن القناعة الا في نفوس العاجزين . ولكن الدول تحسب لاعتزاز جاراتها حساباً فكأنها تتخذ قول المثل « اذا عز جارك فهن » شعاراً لها ولهذا تحتى العزة والمنعة لجار ولو كان مسالماً لئلا تتقلب الاحوال ويصبح الصديق عدواً والمخالف خصماً لدوداً فكان ثمت نشأة القانون الدولي المسمى بحقوق الامم وبه تراعى حرمة الحكومات الكبيرة والصغيرة على السواء بمعنى ان لا تكون عزة الدولة القاهرة رعباً للدولة الضعيفة بل ان يبقى لكل منها الشأن المخصوص مالم تتماس الحقوق ، يعدل في تنظيمها الى الحرب فالحق ساعتئذٍ للحسام فيطل بمثل هذا القيد الحق الظاهر للقوي بابتلاع الضعيف واصبح ذلك القادر مسئولاً لدى امثاله في بيان الذرائع التي يرمي من ورائها الى اهتضام حقوق الضعيف . فان لم تكن القوة غالبة لا تقاوَى يعدل الى العدل وفل ان يسود هذا . فالدول تذود بعضها عن بعض لئلا يبتلع القوي الضعيف فتزداد قوة القوي عما يماثله وهنالك موقف الخطر على الذين كانوا يماثلونه قدراً

فالقوة التي تذرع الدول بها لصد القويه وحفظ حق الضعيف هي التوازن الدولي المسمى في عرف الفرنسويين

Equilibre politique

وعند الانكليز Balance of power

وعند الالمان Politisches gleichgwicht

ويراد به على قول احد علماء الانكليز حالة لا يستطاع بها لامير او لدولة ان تستبد بالسيادة والامر على دولة اخرى

وقد وضع له احد علماء النمساويين حداً اخر قال فيه : ان التوازن الدولي سنة مشروعة بين الدول المتجاورة سواء في ذلك كثرت علائقها مع بعضها او قلت وبها لا تستطيع الدولة الواحدة منهن ان تضر بشيء من استقلال الدولة الاخرى او من حقوقها المهمة الا وتلقاها دولة اخرى من المجاورات بالممانعة الفعلية فتعرض نفسها من جراء ذلك لاشد الخطر . اه

فكأن التوازن الدولي في عرف الساسة كالجاذبية في عرف علماء الطبيعة لتماسك بها الاجرام في الفضاء على تعادل متناسق بحيث تلازم لذلك مواضعها فان ضعف الجذب من صوب راح الجسم منجذباً الى الاقوى وساء المصير

والتوازن هذا حديث لوضع ذكرًا ولكنه قديم العهد عملاً بخلاف ما ذهب اليه بعض الباحثين فانهم قالوا ان قدم هذا المبدأ لا يتجاوز العصر اليوناني مع اننا رأينا في تواريخ كثيرة من الامم القديمة وقائع جمة يصح ان يكون صدورها عن هذا المبدأ اكثر منها عن الاسباب الأخرى التي انتحلها لها رواتها

فكم من قبيلة رأيناها شمرت للحرب وتضامت واتحدت بغيرها وزحفت جيوشها لمحاربة فانع عظيم لم تخش من صولته ولو عظمت كأنها تستقتل في قتاله ولا ترضى له بالسلطة غير معارض

اعتبر ذلك بما ورد عن رعمسيس الثاني من فراعنة الدولة الثامنة عشرة المصرية كيف كان باسلاً جريئًا مقدامًا دانت له البلاد قاصيها ودانيها وامتد رواق سلطانه حتى الى فلسطين حيثما حمى بعض مدنها بشرارم من عسكره فهابته الملوك والامراء وخافوا بطشه ومزيد بأسه فتألبوا حلفة شديدة الحول يرئسها الكرناس اي الحثيون ويتلوهم الفينيقيون والسوريون والكيليكيون والليقيون والدرانيون والميسيون والجراجسة واهل بيداسوس وايليون

واظهر من هذا تحالف كروسوس ملك ليديا مع احماس فرعون مصر ونابونيدوس ملك بابل لخضد شوكة الفرس الذين غلبوا المادبين على سلطانهم

وفي تاريخ دولتي اشور ومصر حوادث جمة يستدل منها على تناظر الدولتين العظيمتين وانهما كانتا لبعضهما بالمرصاد فلا تقرب الواحدة من تخوم الاخرى حتى تقوم الدسائس والمحالفات على قدم وساق وهذا خبر شلمنصر الخامس كيف انه لما زحف لقتال هوشع ملك اسرائيل خاف شيشنق المصري من استفحال امر مناظره فحالف هوشع

ناهيك ان الفينيقيين كانوا دولاً صغارًا تجمعهم الحلفة ومن غريب امرهم انهم مع وحدتهم دينًا ولغةً وشعبًا وامة ووطنًا لم يجتمعوا السلطة واحدة الا حين اذ كانوا على طاعة الفاتحين. واختلاف دولهم في مدائنهم اوجد تباينًا في مصالحهم الخاصة فنشأ من ذلك حرص كل دولة منهم على شأنها المخصص ومقامها المعهود وتهالكها في الذود عن حوضها وصد قويها عن ضعيفها وخشية كل واحدة منها من مزيد سلطة الاخرى واعتلاء كلتها مما ادى بهن جملة الى اختيار بقعة متحائدة او غير ذات اهمية لتكون لهم دار ندوة تجتمع فيها نواب حكوماتهم الائتمار بشؤونهم العامة كل هذا لئلا يكون وجود دار الندوة في بلد مدرجة لتسوّد دولة تلك البلد

هذا نذر قليل من حوادث التاريخ القديم مما تخيلته صادرًا عن العمل بمبدأ التوازن الدولي الا ان مؤرخي هذه الحوادث لم يذكروا لها ذلك المبدأ سببًا بل انتحلوا لها اسبابًا شتى وظني بها لا احسبه فصلاً ولا اعتقده من الحقائق الثابتة الا اذا فحصته نقدة الحقائق ورأت فيه مقنعًا

ولا اخال السواد الاعظم من الباحثين يرى بأسًا من القول بان مبدأ التوازن كان يخطر لبعض الحكومات القديمة فتعمل به حينًا وتنبذه احيانًا وانما يخال لي ذلك لأن بعضًا من المحققين قالوا بان مبدأ التوازن كان ظاهرًا في حوادث اليونان قبل الدولة المكدونية واستشهدوا على ذلك بما رأوا من تفرقهم دولا صغارًا تزاحم بعضها بعضًا وما علموا من تحاسدهم وغيرة كل منهم على بلدته والتفاني في سبيلها فحكموا بتسود المبدأ فيهم سياحين اذ رأوا انهم كانوا اذا وقعت الحرب بين بلدين منهم ونصر كلا منهما فيئة من الوطنيين حتى ظفر احدهما انقلب حلفاء الظافر عليه ليسلبوه ثمار النصر او لئلا يشمخ بانفه فيسومهم ما لا يطيقون

قلت ان بعض العلماء حكموا بوجود مبدأ التوازن الدولي عند اليونان مما علموا ولكني اعجب كيف لم يجدوا ذلك المبدأ فعالاً بين الفينيقيين وهم على ما وصف بل كيف لم يكن ذلك شأن سائر ممالك العالم القديم وهي صغار متبعثرة بقواها الضعيفة في ملء العالم المعروف — بل كيف لم يكن ذلك المبدأ سارياً بين قبائل البادية السارحة في القفار ولو لم يكن تماسك الحكومات الصغيرة بذاتها ومحالفاتها من نتاج هذا المبدأ لما قام على مدى العصور حكومات ضعيفة بجانب الدول العظمى

ومما يروى عن اسكندر المكدوني انه لما فتح صورًا بعد حصرها شديدًا اراد ان يسير اسطولاً فينيقيًا لفتح قرطاجنة فابى الفينيقيون الاجابة معتذرين بانهم لا يقاتلون ابناءهم والحق انهم كانوا يقصدون ألاّ يكونوا عونًا له على مزيد عظمته

ومثل هذا ما عرف في التاريخ الروماني من ان هيرو ملك سراكوسة كان من حلفاء رومية ولكنه لما رآها تحارب قرطاجنة بعث لمعاونة البلدة نجدةً لئلا تسطو رومية عليها فتعتز بامتلاكها ثم ترجع اليه فترجع يده عن نصف صيقله التي كان يشاركها في امتلاكها بل ربما غلبته على كل ملكه

وخلفاء الاسكندر كان في تقسيم دولة سيدهم وتالبهم على

الطامع في المزيد احسن مظهر لمبدأ التوازن وكان بتوليه صاحب مصراشدهم تمسكاً به ونهوضاً على من مالت لمخالفته

الا ان كل هذه الحوادث قديمها وحديثها ليست لتدل على اطراد السياسيين القدماء الخطة الواحدة في اتباع مبدأ التوازن او اطراحه بل كان الحبل ملقى على الغارب والظروف تحكم على الممالك حكماً لا تجد عنه محيصاً فقد وردت حوادث كان يستطاع لبعض الدول فيها ان تنهض لنصرة ضعيفها الترد عنه الويل فلم تفعل وذكرت وقائع اخرى دلت على وجود هذا المبدأ في سياسة تلك الايام

وظل الامر كذلك واوربا غافلة عن صوالحها بمنازعات ملوكها وامرائها اولئك يريدون خفد شوكة اصحاب الاقطاعات وهولاء يذودون عن حياضهم حتى جرت الدماء انهاراً وكانت ايامهم ظروفاً تضيق عما سواها — الا ايطاليا — فان امارتها وجمهورياتها كانت تناظر بعضها بعضاً وتتزاحم بالمناكب على جرّ المنافع ودرء المفاسد وهي في اشد الحذر من تعاظم قوى بعضها وفي ذلك يقول مؤرخها كيوشرديني : ان تحاسدها حملها على مراقبة بعضها بعضاً والنظر في كل حركة او عمل يظنه الواحد مما يؤدي الى زيادة قوى الاخر اه

فمن هذا التحاسد والتناظر برزت جرثومة هذا المبدأ الفعال على ان من الكتاب من انكر هذا الاصل وحسب النشأة الايطالية موضعية لم تتل شرف الحظوى في سائر الاقطار ودليل المنكرين على ذلك ان القائلين بايطالية المنشأ يحسبونه واقعاً في اوائل القرن الخامس عشر والحال انه جرت في القرن المذكور حوادث مهمة تخالف هذا المبدأ في كل من انكلترا وفرنسا واسبانيا والمانيا فلو كان المبدأ قد اتصل يومئذ بتلك الامم لما جرى منهم ما يخالفه وانما يدعون انه لم ينته ذلك القرن الا وقد تبوأ المبدأ سدته ويحسبون بداءة العمل به منذ زحف شارل الثامن ملك فرنسا سنة ١٤٩٤ على ايطاليا لفتح نابولي فاضطرب بعض ملوك اوربا وعدوا عمله تخلا بهذا المبدأ القويم وتالبت الحلفة الاوربية الاولى لصد مطامع الفاتح يومئذ تناسى مكسيليان امبراطور المانيا عداوته واطرح فرديناند ملك اراكون خصامه وعرف حكم ايطاليا وامراؤها واجب التوازن الدولي ونهضوا على الترنسيس فاخرجوهم من ايطاليا

ومنذ يومئذ بدأت السياسة المبنية على هذا المبدأ الفعال فهو اذاً من مبتدعات العصر الخامس عشر ومما تفضلت به ايطاليا على العالم المتمدن فاصبح مما يتخذه الساسة قاعدة لاعمالهم متى ارادوا . اما الولايات المتحدة في اميركا فان كيانها وعلائقها مع بعضها مظهر من مظاهر هذا المبدأ لكنها لم تمد يدها اتأييده في اوروبا بل اكتفت بالمحافظة عليه في قارتي اميركا اذ هي لا تسمح لاي كان من امم اوروبا بامتلاك ارض او انشاء مستعمرة في اميركا والمبدأ هذا هو المعروف بمبدأ مونرو

هذا ما عنياه من التوازن الدولي رفعناه الى القراء الالباء والله يتولاهم بمنه وكرمه

الفيلسوف جول سيمون

حق علينا للقراء بعد ما اطلعناهم عليه من مبادىء هذا الفيلسوف العظيم ان نريهم وجهه الهادىء اللطيف الذي كانت تجلله شيخوخة طاهرة وان نورد لهم طرفاً من سيرة هذا العصامي الذي ارتقى بجده ومواهبه الى اعلى المناصب في بلاده . وفضلاً عن انه قد صار للقراء هذا الحق فاننا نرى ذلك مما يجب علينا ادبياً . فقد حظينا يوماً بالشرف العظيم الذي يتوق اليه كل مشتغل بالادب وهو ان يعرف اقطاب الادب والفلسفة فعرفنا الرجل معرفة ابقت في نفسنا حسرة شديدة . ذلك انها كانت معرفة غير كاملة . فقد اطلعنا على اكثر كتبه اخصها كتاب « الواجبات » وكتاب « الحرية السياسية » وكتاب « المرأة في القرن العشرين » بل درسناها درساً ونقلنا الى

اللغة العربية هذا الكتاب الاخير كما ذكرنا في الجزء الاول فاذن لنا الفيلسوف بنشر الترجمة بكتاب كتبهُ رحمه الله وهو مصاب بالكتاركت في عينيه وفيه يقول — « كرهت ان أُبطئ عليك بالجواب بالرغم عن كوني بين ايدي الجراحين لذلك جئت اقول لك انك في غنى عن استئذاني »

الا ان المنون كرهت ارتع فرنسا طويلاً بهذا الرجل العظيم فحرمت الذين استضاؤُا بنور تلك الشمس من بعد ان يقتربوا منها فيعرفوا وجهها كما عرفوا نورها . فارسلنا يومئذٍ نرجو مجلة الهلال الغراء ان تريناً وجهها . فصنعت يومئذٍ كرماً منها هذا الرسم وكرماً منها اعارتنا اليوم اياهُ لنضعهُ في صدر هذه الترجمة

وقد اوردنا ذلك دلالةً على اننا نكتب تاريخ حياة هذا الفيلسوف كتلميذ يكتب تاريخ حياة معلمه . ولقسمه الى قسمين فنودع القسم الاول بعض تفاصيل حياته ونأتي في القسم الثاني على ذكر فلسفته وسياسته تمهيداً لما سننقله عنه من الفصول الفلسفية والسياسية والادبية انجازاً لوعدنا في الجزء الاول فنقول

ولد جول سيمون في ٨ دسمبر ١٨١٤ في مدينة لوريان من اعمال فرنسا في شارع دي بور نمرة ٢٧ . وكان ابوه فقيراً يبيع الانسجة ثم طرأت عليه طوارئ زادته سوء حال فاضطر الى نقل العائلة الى سان جان بريفيلاي حيث شب جول سيمون وترعرع وفي ذلك يقول في كتابه امراة القرن العشرين « لبثت في سان جان بريفيلاي الى السنة التاسعة ولا معلم لي غير امي لانه لم يكن من مدرسة في تلك القرية . وكانت لي رغبة شديده في المطالعة فكنت اقضي اكثر الاوقات داخل البيت جالساً في كرسي اطالع ما تصل اليه يدي من الروايات حتى سئمت امي هذه الحال فاحرقتها وصارت كل يوم تحرقني من يدي جرًا الى خارج المنزل لاتزه واستنشق الهواء النقي

ثم أُرسل الى مدرسة لوريان فدخلها مسروراً وهو في التاسعة من عمره ولكن ما لبث اهله ان زادوا سوء حال فعزموا على اخراجه منها وتعليمه حرفة يدوية فاخذ جول سيمون يلتمس اليهم ان لا يفعلوا ويطلب ان يمهلوه قليلاً حتى يأخذ ما يجب عليه اخذه من العلم فامهلوه وادخلوه مدرسة في مدينه فانّ صابرين صبراً جميلاً على كل ضيق توصلاً الى تعليمه

غير انهم عجزوا بعد ذلك عن دفع راتبه المدرسي فحزن جول سيمون لذلك ورأى آماله كلها ذاهبة ادراج الرياح . الا ان ناظر المدرسة ابلغ فقر اهله الى مدام لي نورمان التي كانت تنفق من جيبها على بعض الطلبة فدفعت عنه الراتب المدرسي فبقيت عليه نفقاته الخصوصية اي نفقات غذائه ونومه وفي ذلك يقول « وكنت ساكناً في غرفة صغيرة بلا موقد للنار في الشتاء ولا اثاث غير مائدة صغيرة محطمة وسرير صغير يكاد يملأ المكان . وكنت ادفع ٢٥ فرنكاً في الشهر عن اجرة الغرفة وجميع لوازمي ولما كنت قد اعفيت من دفع الراتب المدرسي كانت ميزانيتي في السنة ٢٥٠ فرنكاً فقط . ولكن من اين كان لي ان احصل على هذا المال في كل سنة »

الا انه كان لابد من تدبير هذا المال . فدله معلم له يدعى لي نيفه على ثمانية تلامذة يعلمهم ويأخذ اجرته . وكان عمر جول سيمون يومئذ ١٥ سنة . فقسمهم الى صفين صف يعلمه كل يوم من الساعة السادسة ونصف صباحاً الى الساعة الثامنة ونصف وصف من السادسة مساء الى السابعة وفي ذلك يقول « وكان سكان القرية ينظرونني في كل صباح ومساء ذاهباً الى الصف او عائداً منه وانا احمل مصباحاً انير به طريقي فيلتفون يتاملون فيَّ وقيل انهم كانوا يحبونني بعملي ويحترمونه بعض الاحترام »

وفي سنة ١٨٣٢ عين معلماً في مدرسة رين ويكفي للدلالة على مبادئه في التعليم ان نورد فقرة كتبها الى صديق له معلم في مدرسة غير مدرسته . قال « في الليل اخطر ذهاباً واياباً في قاعة النوم احرس التلامذة في نومهم . في كل سرير ولد صغير او قرد صغير وجهه متدفق بماء الصحة ويداه ملطختان بالحبر وهو يغط غطيطاً شديداً . وفيما ان ماش اسمع حركة فالتفت لارى صاحبها فارى رأساً صغيراً يخرج من تحت اللحاف بعينين براقتين واسمع قائلاً يقول — « وحياتك يا مسيو لست صاحب هذه الحركة » فيأتيني الضحك ويخطر لي ان اقبله بدلاً من ان اعاقبه ولكن لابد من معاقبته . كذا يقتضي نظام المدارس الملكية . كل تلميذ يتكلم بلا داع للكلام يعاقب بالانفراد ساعة . ومع ذلك يعرفون اني ألين في معاملة التلامذة . فما اشد تعب هذه الحرفة »

وفي سنة ١٨٣٣ دخل مدرسة المعلمين فعلق عقله بالفلسفة وصارت نفسه فيها تتراوح بين الشك والرجاء وفي سنة ١٨٣٩ عينه المسيو كوزين نائباً عنه في مدرسة العلوم وخطيباً في مدرسة المعلمين . وكان عمره اذ ذاك ٢٥ سنة . وهكذا دخل باب الشهرة في عمر يكون فيه الانسان عادة ممتلئ الصدر قلقاً وخوفاً على مستقبله

وكان اول ما كتبه تاريخ مدرسة الاسكندرية . روى

انه كتب المقالة الاولى منه واخذها الى احدى المجلات العلمية رجاء ان يأخذ ثمنها . ولكنه لم يجترئ على مقابلة مدير المجلة فارسلها اليه وكان عالمًا انه اذا رضي المدير بادراجها فانه يرسل اليه المسودات حتى يصلحها . فلم تنقض ايام حتى اتته مسوداتها ففرح جول سيمون لذلك لانه قال في نفسه انه يأخذ ثمنها فيتعشى به تلك الليلة على الاقل عشاء جيدًا . ولكن خاب ظنه اذ علم ان تلك المجلة لاتدفع عادة ثمن المقالة الاولى

ومن ذلك الحين اخذ ينشر المقالات الشائقة في الفلسفة والسياسة ويخطب في مدرسة السوربون فطارت شهرته وبعد صيته فانتخب عضوًا للبرلمان بعد ثورة سنة ١٨٤٨ ولكنه سقط في انتخاب سنة ١٨٤٩ فرجع الى كلية السوربون يعلم فيها

وفي هذا الوقت عمل عملاً في السوربون كتب الجمهوريون تاريخه باحرف من ذهب في تاريخ الجمهورية . ذلك ان نابوليون الثالث كان ينوي قلب الجمهورية واقامة الامبراطورية وهو يريد استشارة الشعب الفرنسوي باقتراع عام (بلبيسيت) فوقف المسيو جول سيمون في منبر الخطابة في السوربون وكانت القاعة غاصة باكابر رجال العلم والسياسة فخطب قائلاً (ايها السادة . انا في هذه المدرسة معلم لمبادئ الادب ومن واجباتي ان اعطيكم الآن امثولة فيها . ان رجلاً عهد اليه صيانة الحق قد اقدم على دوسه . وسنرى غدًا اذا كانت فرنسا ترضى دوس الحق ولكن اذا لم يكن في صندوق الاقتراع غير ورقة واحدة تنتصر له فاعلموا منذ الان اني صاحب هذه الورقة)

فدوى في المكان تصفيق الاستحسان دويًا اهتزت له جدران قاعة السوربون . فاوقف الدرس وانزل الخطيب من منبره فخرج به الحاضرون وهم يهتفون له هتافًا شديدًا . وفي اليوم الثاني اضطر جول سيمون الى ترك وظيفته في كلية السوربون فخرج منها واعتزل الاعمال في منزله فالف فيه كتابيه الشهيرين : الواجبات . والحرية السياسية

ومنذ هذا العهد لم يبق فرنسوي في العالم حتى سمع بجول سيمون وقرأ كلامه الحلو العذب اللين والقوي معًا . وما زال صاعدًا جبل الشهرة حتى بلغ قمته في سنة ١٨٦٣ اذ انتخب من جديد عضوًا للبرلمان

فخطب فيه الخطب الطنانة الرنانة التي سحرت الالباب وجعلت له مقاما عاليًا بين اخطب خطباء المجلس في ذلك العهد : بريه وتيرس وجول فافر . فزادت شهرته اتساعًا وصيته بعدًا فاعيد انتخابه سنة ١٨٩٦ وبعد انقضاء سنة القيت اليه وزارة المعارف الفرنسوية . ثم اضطر الى الاستقالة بعد حرب سنة ٧٠ ثم عاد الى الوزارة ثم استقال لاسباب سيرد اجمالها في القسم الثاني من تاريخ حياته

هذا وان القلم ليقصر عن ان يصف الشهرة التي نالها هذا الفيلسوف الكبير والسياسي العظيم في بلاده والسلطة التي كانت له في آخر ايامه وهو ابن رجل فقير كان « بائع النسجة » في احدى القرى الصغيرة . ويجدر بنا هنا ان نورد ما قاله عن نفسه بهذا الشأن في كتابه امرأة القرن العشرين اذ كان يستشهد على فضل الثورة الفرنسوية وتأثيرها في دفع التقدن الى امام قال :

« ولكم في نهوضي الى ما انا فيه دليل على ما اقول . فانني كنت في السنة الثالثة عشرة من عمري فقيرًا يتيمًا وحيدًا بلا عضد ولا صديق . وكنت اذ ذاك محتاجًا الى كسب ما اسد به نفقاتي المدرسية فضلاً عن نفقاتي الخصوصية . اما الآن فانا اشغل منصبًا من اعظم المناصب التي في بلادي (يريد عضوية مجلس الشيوخ) فلو كنت في عهد الحكومة القديمة (يريد الحكومة قبل الثورة) لما كان امامي اذ ذاك الا احتراف احدى الحرف البدوية في قريتي او الانخراط في سلك احدى الجمعيات الاكليريكية

وسنأتي في احد الاجزاء القادمة على القسم الثاني من تاريخ حياته وفيه الكلام على فلسفته وسياسته ومؤلفاته

العجائب الحديثة

نريد « بالعجائب الحديثة » العجائب التي يصنعها العلم في هذا الزمان يوماً بعد يوم . منها عجيبتان وقفنا عليهما في مجلة المجلات الفرنسوية الشهيرة فآثرنا نقلهما الى حضرات القراء

الاولى اختراع جديد للدكتور الاميركي كورنيتج وموضوعه استبدال الاحلام الثقيلة المخيفة باحلام جميلة بهيجة . فكل يعلم ان الانسان في مرضه يرى في الليل احلامًا مزعجة تورثه الانقباض وثقل الرأس والتعب حين استيقاظه فتهدم بذلك شيئًا مما يكون قد بناه الطبيب بعلاجه . فالغرض من هذا الاختراع ان تزال تلك الاحلام المزعجة ويوضع مكانها احلام جميلة تؤثر تأثيرًا حسنا على قوى المريض وعلى مجموعه العصبي فتسره بدلاً من ان تسوءه وتساعد الطبيب على شفاء مريضه بدلاً من ان تعاكسه . وقد توصل الدكتور كورنيتج الى هذه النتيجة مستعينًا

بمنظر الاشياء الجميلة والانغام الشجية واليك وصف اختراعه بوجه الاجمال لترى ما فيه من الغرابة

يلبس الدكتور رأس المريض عراقية من عراقيات النوم مصنوعة من نسيج لطيف فتغطي الراس كله الا الوجه . ويكون فيها عند الاذنين ثقبان تبدو منهما الاذنان . ومتى ظهرت الاذنان من فوق العراقية وجدتا غطائين معدنيين مجوفين عالقين بالعراقية ينطبقان على الاذنين . وكل من هذين الغطائين يتصل به انبوبة من الكاوتشوك طرفها الواحد عالق بالغطاء والطرف الثاني متصل بآلة ناطقة (فونوغراف)

ومتى لبس المريض هذه الآلة في رأسه أُلقي على مقعد او ديوان مجلل بغطاء كثيف يمنع النور من النفوذ اليه . وخارج هذه الغرفة المظلمة توضع آلة لعكس النور على وجه بهيج جداً يتصل بالغرفة المذكورة آنفاً . فاذا نام المريض في هذه الغرفة والآلة عاكسة النور البهيج امامه وفي اذنيه انبوبة الفونوغراف بدأ عكس النور في الآلة العاكسة فابتهجت بذلك عيناه واخذ الفونوغراف بترنيم انغام شجية تطرب لها اذناه فينشرح صدر المريض بهذه الملذات الداخلة اليه من عينيه واذنيه . واشد ما تكون هذه الملذات تاثيراً عليه عند ما يدب النعاس في جفنيه وذلك قبل ان يفقده الرقاد حسه وتبقى الملذة مؤثرة عليه حتى بعد استغراقه في النوم فيحلم احلاماً جميلة بهيجة لانه نام منبسط النفس مشروح الصدر بانغام الفونوغراف وصورة الانوار المنعكسة

هذه هي الاعجوبة الاولى بقيت الثانية وهي لا تنقص عنها غرابة

وبيانها ان رجلاً ايطالياً من سكان كاليفورنيا يدعى باتريتي كان في معدته تورُّم ينغص عيشه ويحرمه طيب الحياة . فقصد الدكتور مكدونالد في سان فرنسيسكو يستشيره في مداواة دائه . فابلغه الدكتور مكدونالد انه يجب استئصال سبب الداء بعملية شديدة الخطر يرجح انه يموت بها واذا لم يمت ونجحت فلا يعيش وقتاً طويلاً . الا ان ذلك الايطالي كان قد سئم الحياة لما يجد من الألم في معدته فرضي باجراء هذه العملية . ولو كان ملماً بعض الالمام بمبادئ الفيسيولوجيا او كان عالماً بما يريد الدكتور مكدونالد صنعه به لما رضي بتسليم نفسه اليه

فالقاه الدكتور على مائدة بعد تخدير اعصابه وشق جسمه بآلته . وكان غرضه من قوله « استئصال سبب الداء » استئصال المعدة كلها لانها مركز الداء فقطعها بخفة ومهارة غريبة ثم اخذ لمرىء (بلعوم الطعام) فجذبه قليلاً الى اسفل وتناول المعاء فجذبه قليلاً الى فوق حتى التقيا فتناول حينئذ خيطاً حريرًا وخيطهما به واطبق جوف الرجل والقى المعدة على الارض فاصبح باتريتي بلا معدة

وليس هذا بغريب فقد سبق لكثيرين من الاطباء انهم قطعوا المعدة من الجسم وبقي الجسم حياً ولكن الغرابة في ان يعود الى ذلك الجسم نشاطه وصحته وبالخصوص « قابلية الطعام » فيصيح وهو بلا معدة اصح واحسن حالاً منه وهو بمعدة

وهذا ما جرى لباتريتي . فان تلك العملية الجراحية نجحت كل النجاح وما انقضى على هذا الرجل ثمانية ايام حتى احس بتحسن حاله واشتهى الاطعمة المختلفة فطلب لحماً وخبزاً . فنهاه الدكتور مكدونالد عن ذلك فسكت باتريتي ولكنه في اول يوم أُذن له فيه بالخروج من المستشفى للنزهة قليلاً قصد احد مطاعم المدينة واكل فيه من الخبز واللحم والدجاج حتى التهمة وخرج . فلما درى بذلك الدكتور في المساء عنفه ووبخه وكان باتريتي قد ضاق ذرعاً بالتعنيف والتوبيخ ففر من المستشفى دون ان يدري به احد وذهب الى احدى محطات السكة الحديدية يعمل فيها بنقل امتعة المسافرين ليكسب خبزه بعرق جبينه

واتفق ان الدكتور مكدونالد قصد تلك المحطة فابصر مريضه يحمل صندوقاً ثقيلاً ضخماً على ظهره فعرفه الدكتور وصاح به ان ينزل الصندوق عن ظهره خوف ان ينقطع مريئه ثم اتى بمركبة واكرهه على ركوبها معه وعاد به الى المستشفى كسجين فاعيد به الى سجنه . فابقاه في المستشفى قريباً من شهر حتى تم شفاء جرحه ثم أُطلق سراحه فخرج باتريتي من المستشفى صحيحاً معافى ياكل اللحم والخبز وكل ما تطلبه نفسه وهو بلا معدة . والسر في هذا ان معاءه قام مقام معدته

وهو الآن قوي الجسم صحيح البنية يحرث حقله في كاليفورنيا ويقول انه سيعيش نصف قرن ايضاً . وقد عزم ان يتزوج ولكنه يكدره جداً ان ياتي اولاده بمعدة فانه يجب ان يكونوا مثله بلا معدة ليستريحوا من ثقلها

فمن يمعن النظر في هاتين الحادثتين « الاحلام الجميلة مكان الاحلام المزعجة » و « قيام المعاء مقام المعدة » يدرك ان الانسان مع كل ما توصل اليه اليوم من الاختراعات والاكتشافات لا يزال كطفل صغير على شاطئ بحر العلم الواسع اذا التقط منه بعض الحصى والاصداف بقي حوله منها مالا يحصر ولا يحصى وان للانسانية مستقبلاً عظيماً لا يعلمه الا الله .

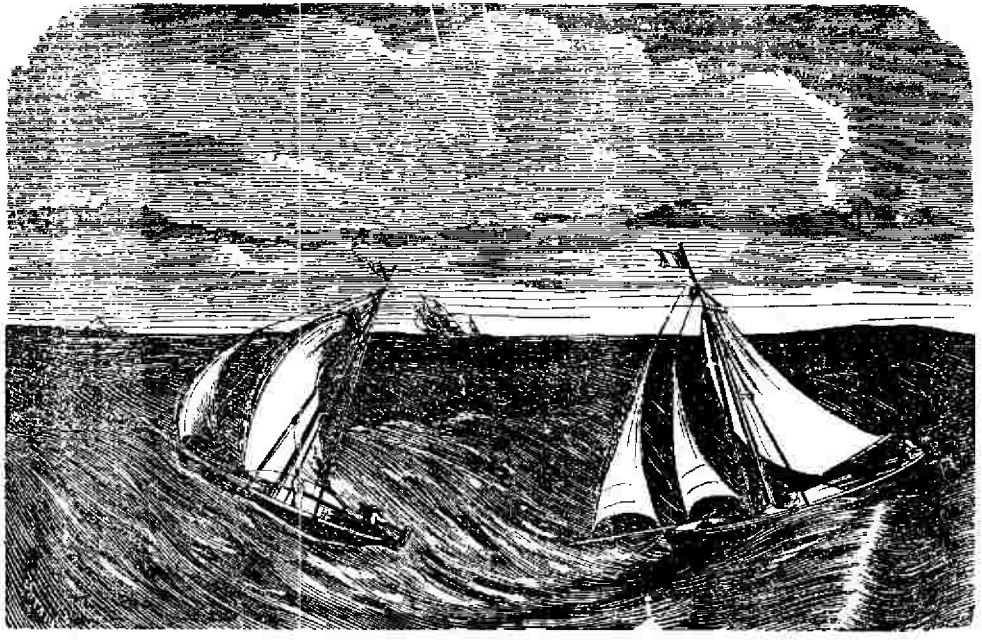

سباق الزوارق في البحر

رجل يجرب تجربة كيماوية أمام امرأته وولده فاخذت الام تصيح خوفاً وحذا الولد حذوها فعلمنه بذلك الجبن والخوف
ولو ثبت جاشها لثبت جاشه اقتداء بها فان القدوة خير معلم . راجع في الجزء الثالث
« قصة أم ومعلم »